

مفهوم القومية عند أحمد شوقي مريم جبر فريحات

ملخص:

تُعد "القومية" أحد المفاهيم المختلطة وغير المحددة، بسبب من تداخلها بعدد من المفاهيم الأخرى ذات الصلة، كالوطنية وحس الانتماء الناتج عن الدين واللغة والتاريخ وغيرها، وكلمة "القومية" في اللغة من "القوم" وتعني الإقامة بالمكان، وجمعها أقوام وأقوام وأقوام: الجماعة من الناس. ولمفهوم القومية ارتباط بمفهوم الأمة، من حيث الانتماء إلى أمة محددة، هي الشعب ذو الهوية السياسية الخاصة الذي تجمع أفراداه روابط موضوعية - شعورية - روحية متعددة تختلف من سياق لآخر (1).

وعلى ذلك فالقومية تشكل شعوراً كلياً شاملاً تجاه الأمة، وليست موقفاً سياسياً مباشراً (2). بل "هي الشخصية الجماعية لأية أمة.. أوهي الواقع التاريخي واللغوي والثقافي الذي يحوي نتاج ومعطيات لجميع التجارب الإنسانية التي خاضتها الجماعة البشرية منذ نشأتها، إلى أن تبلورت شخصيتها تبلوراً واضحاً مميزاً، قام على تفاعل عدة روابط مشتركة خاصة بهذه الأمة" (3)، فهي - القومية - ظاهرة اجتماعية تواكب الأمة في نشوئها ونموها، وتشارك في استقرارها ومصيرها (4).

بؤادر الشعور القومي العربي:

نلحظ في الحديث عن بؤادر الشعور القومي العربي، أنه يحلو لبعض الباحثين أن يردوا بؤادر ذلك الشعور إلى عصور بعيدة في التاريخ العربي، منذ العصر الجاهلي، بما كان يشهده المجتمع العربي من مظاهر الوحدة أو التآلف والتحالف بين القبائل، التي كانت تتجلى عند أول خطر يهدد تلك القبائل، وفي مظاهر اجتماعية وثقافية مختلفة، ومنها الأسواق الأدبية كسوق عكاظ، وبمجيء الإسلام اجتمعت تلك القبائل على وحدة دينية - لغوية - سياسية، حتى غدت القومية العربية إيماناً أو شعوراً داخلياً لدى الفرد، ولذلك رأوا أن "إيمان العرب بالقومية العربية، وبالتالي إيمانهم بوحدتهم ومستقبلهم كأمة واحدة، ليست مسألة يتوصل إليها الفرد عن طريق البحث العلمي، كما أن الإيمان بالقيم العليا لا يتواصل إليه الإنسان عن هذا الطريق" (5)، وإنما ثمة ثوابت لا بد وأن تبقى في صميم النهج الفكري القومي العربي في مسار التطورات والمتغيرات العالمية العربية، تلك هي: اللغة العربية، والأرض (التاريخ)، والحضارة العربية (الإسلام)، والعقيدة الاجتماعية، والوحدة وتحرير الأرض العربية (6).

The Concept of Nationalism According to Ahmad shawky

Maryam Jabr Frayhat

Abstract

Nationalism is considered one of the problematic terms that is based on patriotism encompassing religion, language and history.

It is a kind of a collative ethos that unites the nation and not just a direct political ptance.

وقد كانت الصفة الغالبة على الشعر العربي الحديث حتى أوائل القرن العشرين هي المزج بين الدين والقومية، الأمر الذي جعل من الصعوبة لدى أكثر الدارسين لتاريخ القومية العربية أن يعرفوا بداية الإحساس والشعور والتشكل لهذه القومية، فقد كان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي يفهمون الوطنية والقومية على أساس ديني، وعلى ذلك فقد عدَّ الإمام محمد عبده المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله، لكونها الحافظة لسلطان الدين⁽⁷⁾.

وإذا سلمنا بهذا المفهوم للقومية العربية، مفهوم وحدة الدين واللغة بالتحديد، فقد تعرضت هذه القومية لكثير من العوامل التي حركت مشاعر الشعوب العربية تجاه هذه القومية، دونما وعي حقيقي على ذلك، من خلال ما ألم بالعرب المسلمين من ظروف كمشكلة الخلافة والحكم، ثم الشعوبية في العصر العباسي، وبروز الوعي على مشكلة الغزو الأجنبي لكل ما هو عربي.

غير أن الإحساس العربي بالخطر الأجنبي تجلّى أكثر ما يكون في سيطرة العثمانية على العرب بمختلف أشكال الاضطهاد والتسلط وتعميق التخلف الاجتماعي والقضاء على أية دعوة قومية عربية، ناهيك عن فتح العثمانيين المجال الاستعماري للدول الأوروبية، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث بدأت ملامح القومية العربية بالظهور من خلال تمرد العرب على السيطرة العثمانية، وكان من مظاهر هذا التمرد تشكيل الجمعيات والمننديات السرية والعلنية التي تعمل على الدفاع عن العروبة ضد المستعمرين، قبل أن تتأجج نار مختلف أقطار الوطن العربي منذ 1919 في مصر وحتى 1931 في ليبيا.

لكن ما يهمنا في كل ذلك علاقة الأدب بتلك المتغيرات.

الأدب العربي والقومية:

يتضح من التعريف السابق للقومية، أن ما يشترك فيه الأدب والقومية هو صدور كليهما عن الشعور الداخلي لدى الفرد، والأديب يستطيع التعبير عما في داخله بصورة أدق وأسرع من الفرد الاعتيادي، وعند ذلك يعمل الأدب كوسيلة لإيقاظ الشعور القومي من خلال الدعوة إلى ضرورة ترسيخ النظرة إلى الوحدة في الوطن العربي أو الرابطة القومية، عن طريق ترجيع أصداء ما يحدث في أحد أقطاره، والعمل على إضعاف الشعور الإقليمي الذي تغذيه التجزئة، ويمكن أن يعمل الأدب على بعث الإحساس القومي من خلال:

1- مقاومة ظواهر الانقسام والطائفية والمذهبية والدينية والعربية.

2- الإشارة إلى التراث المشترك من القيم الروحية والأخلاقية.

3- صياغة مشاهد من حياة المجتمع العربي القديم والحوادث التاريخية المشتركة التي تنقل الإحساس المشترك بوحدة التاريخ.

4- غرس مفهوم قدسية أرض الوطن العربي (8).

ولم يكن الأدب العربي والشعر العربي بشكل خاص، بمنأى عن تلك الأهداف، فقد عايش الشاعر العربي الحديث ظروف وطنه في ظل الاستعمار، ومحاولة التجزئة والتفريق وطمس معالم العربية، فتحول إنتاجه الشعري لما من شأنه تقوية الشعور بالوحدة وبالرابطة القومية، وتعزيز وحدة الانتماء والمصير المشترك لدى الإنسان العربي الذي بدأ يشعر ببؤس التجزئة وظهور الحدود الإقليمية، فوجد شاعراً مثل الرصافي يعبر عن مشاركة الأقطار العربية بعضها بعضاً فيما يحدث لها، بفعل أوضاع سياسية معينة، منبهاً إلى عوامل الوحدة التي تجمع أقطار الوطن العربي ومن أهمها اللغة والماضي المشترك، فيقول:

أتونس إن في بغداد قوماً أتونس إن في بغداد قوماً
ويجمعهم وإياك انتساب إلى من خصّ منطقتهم بعناد
فنحن على الحقيقة أهل قري وإن قضت السياسة بالعباد
ودين أوضحت للناس قبلاً نواضع آية سبيل الرشاد
وما ضر العباد إذا تدانت أواصر من لسان واعتقاد (9)

ولم ينفرد الرصافي بالتنبيه إلى عوامل الوحدة هذه، بل نجد شوقياً في مصر يعيد إلى الأذهان صور الماضي، ويذكر بعدد من الروابط، فنجدته يتحدث عما أصاب دمشق في نكبتها:

وللمستعمرين وإن الأنوا قلوب كالحجارة لا ترق
نصحت ونحن مختلفون داراً ولكن لکننا في الهم شرق
ويجمعنا إذا اختلفت ديار بيان غير مختلف ونطق (10)

ولم يكن أحمد شوقي وحده من يمتلك تلك الرؤية تجاه ما يحدث في الأقطار العربية، بل سجل كثير من الشعراء ترابط العالم العربي وتعاطف أبنائه، فقد تحدث الشاعر العراقي رضا الشيباني عن وحدة الأقطار العربية في نفس الإنساس العربي: (11)

ببغداد أشواق الشّام وهأنّا إلى الكرخ من بغداد جم التّشوق
فما أنا في أرض الشّام بمشتم ولا أنا في الأرض العراق بمعرق
ولعل شعراء الشّام كانوا أشد إحساساً بوطأة الأحداث، وبخاصة فيما يتعلّق
بالنّقسيم الذي خطط له الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى، وفي مقدّمتهم خير
الدين الزركلي الذي حاول في أبياته أن يكشف نوايا الحلفاء: (12)

فيم الونى وديار الشّام تقّسم أين العهود التي لم ترع والذّم
مابال بغداد لم تنبس بها شفة وما لببروت لم يخفق بها علم
وعبر أبو الفضل الوليد عن معنى الوحدة والعروبة بين الأقطار العربية (13) فقال:
الشّام أخت للعراق وفيها نور العروبة للضليل الناشد

أهلوهما أبنا عم كلهم عرب بأداب لهم وعوائد
ويرى د. الدقاق أن الوحدة الشاملة والدولة الكبرى كانت هدف العرب الأول
وأمنيّتهم الغالبة، فلم يكونوا يتحدّثون عن السوري واللبناني والمصري والجزائري
والعراقي، إلا كما يتحدّثون عن الحلبي والبيروتى والإسكندري والوهراني
والموصلى.. وكما قال حسن البحيري (14):

لا يعرف العربي في الأحداث بالمصري والسوري واللبناني
فالشرق تجمعه العروبة عروة أدنت أقاصي مصر من بغداد

من هذه الأمثلة وكثير غيرها مما ورد عند الشعراء العرب يتبين أن إحساس
الشاعر العربي بمعاني الوحدة والتضامن كان في أغلب الأحيان رد فعل، نتيجة
الاضطرابات والأحداث السياسية التي كانت تهدد كيان الأمة العربية بمحاولات
النّقسيم والاستيلاء على مقدراتها، ومن هنا فقد ربط بعض الدارسين (15) بين القومية
وهوية الإنسان العربي في مواجهة أبناء الأمم الأخرى، مما يخلقه الانتماء إلى أمة
ما في داخل الإنسان من شعور من العاطفة نابع من العمق الوجداني المتمثل
بالعاطفة التي تربط الإنسان بمحيطه الاجتماعي.

وقد تبلورت ركائز قاعدة الوعي القومي العربي الجديد خلال فترة ما بين
الحربين الأولى والثانية، من خلال التعبير عن الحقائق الجوهرية للقومية، وتجلّى
ذلك في العودة إلى التراث، والتعبير عن أمجاد العرب وبطولاتهم ضد الأعداء،
حاملين الرسالة الإسلامية، مخلصين بطولات قادة العرب السياسيين والعسكريين
والمفكرين، والماضي عندهم من أهم ركائز القومية وتجلي الوعي العربي كذلك
من خلال الدعوة إلى الوحدة العربية، ونبذ التجزئة والنضال ضدها، وأصبحت
الثورة أسلوباً لتحقيق الأهداف القومية (16):

فقد تحدث العقاد عن فكرة القومية وعناصرها ومقوماتها:

إنا بنو وطن تقرب بينه
الشمس تجمع في المطالع بيننا
ومعالم التاريخ في كتب وفي
ولسان صدق في اللغات تألفت
شكواكم شكواي أو سلوككم
وهذا بدوي الجبل يقول:

الربوع ربوع العرب لي وطن
إن لم تكن وحدة الإنسان جامعة
ما بين مبتعد عنها ومقرب
فإننا جمعتنا وحدة الأدب (17)

غير أن هذا الوعي لم يكن سواء لدى جميع الشعراء الذين دافعوا عن مسألة الوجود العربي وطالبوا بالوحدة العربية، لاختلاف مستوى الثقافة والوعي على فهم مدى المخاطر المحيطة بالوجود العربي كله، فهناك من لم يبلغ وعيه بمتغيرات العصر، والأسباب الخفية لتدرج أحداث التاريخ والمؤامرة ضد القومية العربية. ومنهم الرصافي الذي ظهرت عنده سذاجة الوعي السياسي، فأصر على إلحاق اليهود بالعرب باعتبارهم أبناء عمومة ينتمون إلى أصل سامي واحد (19)

ولسنا كما قال الألي يتهموننا
وكيف وهم في أعماقنا والهـم
إني أرى العربي للعرب ينتمي
هما من ذوي القربى وفي لغتيهما
نعادي بني إسرائيل في السر والجهر
يمت باسماعيل قدما فـهر
قريبا معه العبري ينتمي إلى العبر
دليل على صدق القرابة في النحر

وتجدر الإشارة إلى أن الشعراء العرب من غير المسلمين، كانوا أكثر وعيا على المسألة القومية أكثر من المسلمين، فقد كان رشيد سليم الخوري (القروي) شاعر القومية الأول، رائد ذوي الإدراك السليم والفهم القويم، بفضل جرأته الأدبية وتحرره الفكري (20) ومما قال في هذا الصدد:

عش للعروبة هاتفا
انظر إلى آثارها
بحياتها ودوامها
تنبئك عن أيامها
معظمه إلى إسلامها
هذا التراث يمت

وقوله:

أنجف روح العروبة في ربا لبنان وهي نظيرة في (يذبل)
أزيد أعظم من أبي بكر ومن عمر إذا انتسب الكرام ومن علي

أو قوله:

أنا العروبة لي في كل مملكة إنجيل حب ولي قران إنعام
شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت عروبتني مثلي الأعلى وإسلامي
ولعل هذا الوعي لدى الشعراء المسيحيين قد تأتى لهم نتيجة التفاتهم الكامل نحو
العروبة أو الأمة العربية، دون أن يحد من ذلك التزامهم الديني الذي بدا واضحا
لدى الشعراء المسلمين.
فأين كان يقف شوقي في كل ذلك؟

ملامح القومية العربية في شعر شوقي:

لقد نوهت منذ البداية إلى صعوبة البحث عن ملامح ظهور القومية العربية في
شعر شوقي، وملامح الشخصية العربية - بالتالي - في شعره، وحتى لا يبدو في
الأمر تعسف، فإن نظرة سريعة في "الشوقيات"، تظهر الجوانب التي استحوذت
على اهتمام شاعرنا، فإذا استثنينا المناسبات الوطنية والأحداث السياسية التي انطلق
منها خارج مصر، من خلال وصف بعض المدن العربية، ومشاركة الشعوب
العربية في كثير مما أصابها، فإذا تناولنا الجزء الأول من ديوانه - مثلاً - نجده
يشتمل على ثلاث قصائد عن العرب ومكة والرسالة، ويشتمل على ثماني عشرة
قصيدة عن الخلافة وعن الترك.

يقول في "الأسطول العثماني":

هز اللواء بعزك الإسلام وحنيت لقائم سيفك الأيام
وانقادت الدنيا اليك تحسبها عزرا تيار أسلست وزمام⁽²¹⁾

ويقول في "ضيف أمير المؤمنين":

رضي المسلمون والإسلام فرع عثمان، دم، فذاك الدوام
كيف نحصي على علاك ثناء؟ لك منك الثناء والإكرام⁽²²⁾

ويقول في قصيدة "الهلل الأحمر":

يا قوم عثمان - والدنيا مداولة تعاونوا بينكم يا قوم عثمان

فالله قد جعل الإسلام بنيانا⁽²³⁾

كونوا الجدار الذي يقوى الجدار به
ويقول في "تحية للترك":

وحمدك يا أمير المؤمنين

بحمد الله رب العالمينا

لقينا الفتح والنصر المبينا⁽²⁴⁾

لقينا في عدوك مالقينا

وليس المجال بمتسع لإحصاء القصائد التي قالها شوقي في الترك وآل عثمان، غير أن اللافت للنظر، هو أن تركيات شوقي تمثل نزعة إسلامية في وجدانه، فتركيا هي رمز الخلافة الإسلامية التي يدين لها القصر في مصر بالولاء⁽²⁵⁾. فهو بحث الترك على اليقظة والقوة، فيقول في "تحية للترك":

فما رقادكم يا أشرف الأمم

الدهر يقظان، والأحدث لم تنم

.....

من لم يكن ذنبا كان في الغنم

هيو بكم وبنا للمجد في زمن

وصانكم وهداكم صادق الخدم

يا فتية الترك حيا الله طلعتكم

منكم بخير غد في المجد مبتسم⁽²⁶⁾

أنتم عند الملك والإسلام لا برحا

وهو يرى فيها خلافة الإسلام التي تحمي الدين وتزود عنه، فيرثيها عندما تسقط:

وتعبت بين معالم الأفراح

عادت أغاني العرس رجع نواح

ودفنت عند تبلج الإصباح

كفنت في ليل الزفاف ثوبه

في كل ناحية وسكرة صاح

شيعت من هلع بعبر تضاحك

وبكت عليك ممالك ونواح⁽²⁷⁾

ضجت عليك مآذن ومنابر

وبقدر حزنه على سقوط الخلافة عبر شوقي عن انتصار أتاتورك على دول الغرب إلى درجة شبهه فيها بخالد بن الوليد، وكان شوقي ممن علقوا الآمال العظام على هذه الشخصية التي جمعت الدين والبطولة:

يا خالد الترك جدد خالد العرب

الله أكبر كم في الفتح من عجب

كل المروءة في الإسلام والحسب

ولا أزيدك بالإسلام معرفة

كتبه في صحف الأخلاق بالذهب⁽²⁸⁾

للترك ساعات صبر يوم نكبتهم

ولم يترك شوقي مناسبة إلا وتغنى فيها بالترك والخلافة والإسلام - وظل شعره بشكل صدى لولائه للنصر الذي نشأ فيه - وقد أشار إلى ذلك بقوله:

أخون إسماعيل في أبنائه ولقد ولدت بباب إسماعيل

ولعل في هذا ما يفسر توجه شوقي في تركيبته، وإذا كان لنا نجد في مثل هذه القصائد مدخلا للبحث عن القومية العربية، فإننا سنركز بالتأكيد إلى ما ذهب إليه كثير من الباحثين من أن حديث شوقي عن الإسلام إنما هو امتداد للخلط القديم بين مفهومي العروبة والإسلام، فقد اتخذ الترك من العثمانية عنوانا لهم، وتمسكوا بأصرة الإسلام، الأمر الذي جعلهم قريبين من نفوس الكثيرين وقد أشار شوقي إلى هذا المعنى في قوله:

حتى اتهمت، فقيل تركي الهوى صدقوا، هوى الأبطال ملء فؤادي
وأخي القريب، وإن شقيت بظلمه أدنى إليّ من الغريب العادي
الله يعلم ما انفردت وإنما صورت شعري من شعور الوادي (29)

وقد صدق شاعرنا، فهو لم ينفرد بتوجهه هذا، وإنما شاركه في ذلك عدد من الشعراء، فهذا أحمد محرم يقول (30):

يا آل عثمان من ترك ومن عرب وأي شعب يساوي الترك والعرب
صونوا الهلال وزيدوا مجده علما لا مجد من بعده إن ضاع أو رهبا
وهذا حافظ إبراهيم يقول:

يا آل عثمان ما هذا الجفاء لنا ونحن في الله إخوان وفي الكتب
تركتمونا لأقوام تخالفنا في الدين والفضل والأخلاق والأدب

ومن هنا فإن قومية شوقي من وجهة النظر هذه، قومية إسلامية جامعة، فلم يكن شاعر مصر وحدها، بل كان شاعر العروبة والإسلام، يفرح لفرح العرب والمسلمين، ويأسى لأساهم، ويأسف لحاضرهم المتخلف كما يفرح لمصر ويأسف (31) ولعل في أرجوزته المطولة "دول العرب وعظماء الإسلام"، التي نشرت في ديوان مستقل، ما يمثل حقيقة ذلك التداخل، إذ يتداخل التراث العربي والإسلامي لديه إلى حد التوحد، فهي هو يتحدث عن اللغة العربية كأساس جامع بين العروبة والإسلام:

ولم يزل تاجهم الكلام والأمراء الصاغة الأعلام
مجملين باللسان الأبين فمثله يونان لم تزيّن
حتى حباه الله بالجزيل واختاره للوحي والتزويل

اغترف الوليد من جرير والمتنبى قائد الضرير
وحت في الزمن النواصي القدح وفي ربا الغرب الخفاجي صدح

.....

هذا لسان القدم يا نبيا على أساس ثابت مبنيا⁽³²⁾

وفي حديثه عن الخلافة تمثل شوقي شعور المسلم بها من حيث هي سلطة
يسخر كل شيء لخدمتها حتى الدين يقول في قصيدة "نجاه":

هنيئا أمير المؤمنين فإنما نجاتك للدين الحنيف نجاه
هنيئا لطفه والكتاب وأمة بقاؤك إبقاء لها وحياة
فلولاك ملك المسلمين مضيع ولولاك شمل المسلمين شتات⁽³³⁾

وقد وصف "أدونيس" هذه القصيدة بأنها دعاوة سياسية، من حيث هي تسوغ
عمل السلطة بدل أن تضفي المشروعية على وجود السلطة، والدين فيها فعل
أيولوجي مستخدم لإخفاء المشروعية العلانية المظهر على سلطة الخليفة⁽³⁴⁾.

وما لبث الشعور بالولاء لهذه السلطة أن خقت حدثه بعد ما فعله جمال باشا في
دمشق وبيروت إبان الحرب العالمية الأولى، مما جعل كثيرا من الشعراء يعيدوا
النظر في هذه المسألة، فهذا خليل مردم بك يعبر عن اغتباطه بطرد الترك من بلاد
الشام:

أحلت ذراهم واستبيح وسيمو هوانا سادة ومواليا
يساقون باسم الدين للموت عنوة وهل كان إلا منهم الموت ناشيا
لوت منهم الأسباب صلبهم رؤساء من العلياء كانت دوانيا⁽³⁵⁾

ويشير شوقي ضيف إلى أن لحن العروبة في شعر شوقي لم يكن واضحا،
وهذا طبيعي لأنه كان يتغنى بالإسلام وبالخلافة التركية وبالمسيحية، وكل ذلك كان
يجره لأن يتغنى بالعروبة وهي الرابطة القوية بين المسلمين والمسيحيين، ولحنهم
المشترك حين يذكرون ماضيهم وحاضرهم، وموقفهم تجاه الغرب وأممهم. بالنسبة
لشوقي بدأ تحوله إلى الاتجاه العربي بعد الحرب الكبرى، حيث لم يكن يذكر
العروبة قبل الحرب إلا على هامش مدائحه في الترك⁽³⁶⁾، بينما يرى عرفان شهيد
أنه لم يكن من السهل على شاعر كان يحب الأتراك وسلطينهم، ويشيد بالخلافة
والجامعة الإسلامية أن يهجر هذا كله وينظم في مفهوم جديد كان حرباً على
الخلافة زمن السلطان عبد الحميد، ألا وهو القومية العربية، ولكن شوقياً فعل ذلك

ونظم أروع شعره في العرب والعروبة وبلاد الشام، استجابة للأحداث الكبيرة التي هزت ضميره التاريخي⁽³⁷⁾.

فقد تغنى شوقي بعد الحرب الأولى بالنزعات الوطنية والقومية، عن طريق ذكر الأمجاد السالفة، ويظهر ذلك جلياً في قصيدته "كبار الحوادث في وادي النيل" التي يبعث فيها ملوك مصر الأقدمين:

قل لبنان بنى فثاد فغالى ولم يجز مصر في الزمان بناء
ليس في الممكنات أن تنقل الأجيال شملاً وأن تتال السماء⁽³⁸⁾

إلا أن شوقياً بدأت تتضح صورته عربياً بشكل أوضح منذ بدأ يتحرر قلباً من مصريته، وينطلق إلى الدول العربية، فيعبر في يوم تتويجه عن وحدة سائر الأقطار العربية، ويعلن بأن شعره ما كان إلا غناء في أفراح الشرق أو عزاء في أحزانه:

رب جار بلغت مصر تولي — به سؤال الكريم عن جيرانه
بعثني معزياً بماقي وطني أو مهناً بلسانه
كان شعر الغناء في فرح الشر ق وكان العزاء في أحزانه
قضى الله أن يؤلفنا الجر ح وأن نلتقي على أشجانه
كلما أن بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في أعماقه
وعلىنا كما عليكم حديد تنتزى الليوث في قضبانه
نحن في الفكر بالديار سواء كلنا مشفق على أوطانه⁽³⁹⁾

واهتم شوقي بالمناسبات والأحداث العربية فوصف نكبة بيروت على أثر ضرب الأسطول الإيطالي لها، فيشارك بيروت مصابها ويستذكر الماضي:

بيروت مات الأسد حتف أنوفهم لم يشهروا سيفاً ولم يحموك
سبعون ليثاً أحرقوا أو أغرقوا ياليتهم قتلوا على "طبروك"

.....

بيروت راح النزيل وأنسه بمضي الزمان لا أسلوبك
الحسن لفظ في البدائن كلها ووجدته لفظاً ومعنى فيك⁽⁴⁰⁾

وقال في نكبة دمشق قصيدته المشهورة ومطلعها:

سلام من صبا (بردى) أرقّ ودمع لا يكفكف يا دمشق⁽⁴¹⁾

وردد شوقي في مصر صدى الثورة السورية على الاحتلال الفرنسي 1925:

قم ناد "جلق" وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان

هذا الأديم لا كفاء له رث الصحائف باق من عنوان

الدين والوحي والأخلاق طائفة من وسائره دنيا وبهتان

بنو أمية للأنبياء ما ما فتحوا وللأحاديث ما سادوا وما دانوا

كانوا ملوكا سرير الشرق تحتم فهل سألت سرير الغرب ما كانوا⁽⁴²⁾

والنفت إلى جمال الطبيعة في دمشق فقال:

أمنت بالله واستنثيت جنته دمشق دوح وجنات وريحان

قال الرفاق وقد هبت خمائلها الأرض دار لها، الضياء سبان

جرى وصفق يلقانا بها بردى كما تلقاك دون الخلد رضوان

دخلتها وحواشيها زمردة وللشمس فوق لجيد الماء عميان⁽⁴³⁾

والى ذلك فقد توجه شوقي إلى زعماء سوريا ينصحهم فيها بالتضامن ويحذرهم من الافتتان بألقاب الإمارة التي تشرف حاملها:

بني سورية اطرحوا الأماني وألقوا عنكم الأحلام ألقوا

فمن خدع السياسة أن تغردا بألقاب الإمارة وهي رق

وكم صيد بدالك من ذليل كما مالت من المصلوب عنق⁽⁴⁴⁾

وقد ورد في شوقيات "شوقي" غير هذا كثير إلا أن ما يهمنا هنا ليس إحصاء ما قيل، بقدر ما نلاحظ في كل ذلك من أن شوقيًا لم يكن يعني - بالضرورة - ذلك التوجه القومي بمعناه الانتمائي النفسي، وأن ذلك لم يكن عن وعي كامل بمعاني القومية التي ورد عرضها في بداية البحث، وإنما يشعر القارئ لشعره أن حديثه عن الأحداث في المناطق العربية غير مصر ووصفه للمدن العربية، يمكن رده إلى شمولية هذا الشاعر الكبير، في وصفه ومرائيه واجتماعياته، لكن ذلك لم يكن بالكثافة ذاتها والعمق الذي نجده في إسلامياته، أو في انتمائه التركي.

ويرى علي البطل⁽⁴⁵⁾ أن اهتمام شوقي بالعروبة بدأ حين أعلنت ثورة الشريف حسين عن انتصاراتها الأولى، وبدأ أنها ستحتاج الاحتلال التركي فتعاطف مع

أحداث دمشق وتحدث عن بيروت ومأساتها مع الاحتلال الفرنسي، واستمر هذا التيار في شعر شوقي أيام فؤاد الذي ورث العباس في أحلام الخلافة العربية، فكتب أحمد شوقي قصائده المشهورة في تمجيد سعد زغلول الذي طالما هجاه، وكان يضمّن له كراهية عميقة، وما كان مدح شوقي لسعد إرضاء للشعب بقدر ما كان إرضاء لموقف الملك فؤاد الذي كان عليه أن يناور القوى السياسية والاجتماعية التي تتنامى قواها بما لا يتلاءم والنظام الإقطاعي القديم، أما عواطفه الحقيقية فقد كانت دائماً مع القصر الذي ولد ببابه، ويمثله الآن الملك فؤاد بن إسماعيل ممدحه وذكر أباه في أشعره.

يقول شوقي:

الله أكبر يا بن إسماعيل لم تترك لضياح المآثر مغمزا
بالأمس تنهض مصر في دستورها واليوم تنهض للسماك الأزهرا

وقد أشار "أدونيس"⁽⁴⁶⁾ إلى أننا لا نرى في شعر شوقي من الماضي غير الذي يصفه غير الأسماء: أحداثاً وأشخاصاً وأشياء، فنرى سطح هذه الأسماء لا عمقها ونرى لغويتها لا شينيتها، فهو لم ينظر إليها بوصفها علاقات إنسانية- حضارية تولدت أو يمكن أن تتولد، كما أن إنشائيته الشعرية "تستوعب" الظاهرة غير أنها لا تتجاوز معها، وبمعنى آخر فإن شوقيا لا يحدث في نسيج الكلام التفجير المقابل الذي تحدثه الظاهرة في نسيج التاريخ.

وربما لذلك وجدناه يعود إلى مصريته سريعا منذ أن بدأت حدة الحركة الوطنية تخف وتتطوي على نفسها، فكان من أوائل الداعين إلى تمجيد الفرعونية المصرية ملبياً الدعوة إلى أن تكون "المصرية تراثاً قومياً أثيلاً لمصر، وليست فكرة ولا دعوة جديدة"⁽⁴⁷⁾.

فقد لبى شوقي دعوة الفرعونية منذ بدأ التتقيب عن آثار هذه الحضارة الدارسة وتغنى بها، إلا أن الفرعونية في قصائده لا تغلب على إسلامه أو عروبه، كما أنه لم يسلم بكل ما دعا الآخرون إليه، فنجدته يسخر ممن يزعمون أن قوى الفراعنة الروحية، هي التي قتلت مكتشف قبر توت عنخ آمون، حين تقمصت جسم البعوضة التي لسعته فقضت عليه، فيقول:

لا تسمعن لعصبة الأرواح ما قالوا بباطل علمهم وكذابه
الروح للرحمن جل جلاله هي من ضغائن علمه وغيابه
غلبوا على أعصابهم فتوهموا أوهام مغلوب على أعصابه

ما آب جبار القرون وإنما
فذروه في بلد العجائب مغمدا
المستبد لا يطاق ناموسه
والفرد يؤمن شره في قبره
وقال في مكان آخر:

أين الفراعنة الألى استذرى بهم
الموردون الناس منهل حكمة
وأقر بفضلهم وقوة حضارتهم بين الحضارات الأخرى:

فكانوا الشهب من الأرض ليل
مشت غبارهم في الأرض (روما)
تعالى (الله) كان السحر فيهم
غوا يبنون ما يبقى وراحوا
وحين الناس جد مضللينا
ومن أنوارهم قبست أثينا
أليسوا للحجارة منطقينا؟
وراء الأبديات مظلدينا⁽⁴⁹⁾

ولعل مثل هذه القصائد تدفعنا إلى التساؤل عن أسباب اهتمام شوقي بمصر الفرعونية فإذا أخذنا بعين الاعتبار الاهتمامات الدينية السابقة لدى شوقي، وأن حضارة مصر الفرعونية ذات طابع ديني، فإن اهتمامه بها يمكن أن يكون نابعا من هذا المنطلق، على الرغم مما بين الإسلام والدعوة الفرعونية من تناقض.

ينضاف إلى ذلك اهتمام شوقي بالتاريخ والماضي العربي عامة، فكان من الطبيعي أن تجذبه مصر الفرعونية التي كان تاريخها يمثل أطول فترة زمنية في التاريخ المصري، وأما الجانب الآخر الأكثر خطورة، فهو ما ذهب إليه بعض الدارسين⁽⁵⁰⁾ من أن في تاريخ أسرة أحمد شوقي ما يشبه تاريخ أسرة أخرى يرقى عهدها إلى مصر الفرعونية، ورأى هذا التشابه ممثلا في يوسف الصديق، وكان من الوافدين الذين ربحت تجارتهم، كما ربحت تجارة جد شوقي وسميه، وساعد هذا على إيجاد هذا التشابه، أن صار خديوي مصر يدعى "العزیز" وهو اللقب الذي أعطاه القرآن لوزير فرعون الذي اشترى يوسف، ومن ثم صار شوقي يدعى شاعر العزیز وقد اعتد بهذا اللقب وأشار إليه في البائية المعروفة:

شاعر العزیز وما بالقليل ذا اللقب

ويظهر هذا الاتصال الروحي في الشوقيات من خلال ذكر شوقي لأطلال مصر الفرعونية التي لم يذكرها القرآن ذكرا جميلا، لخدمة بلاده، وخدمة الشعر العربي، بما يتضح من خلال التذكير بأن هذه البلاد المستعمرة، كانت مهذا

للحضارات، كما استغل مصر الفرعونية في إطار القومية الإقليمية، وهي المفهوم السياسي الجديد الذي جاء به رفاة الطهطاوي، بعد عودته من فرنسا، كما أنه يستعين بمصر الفرعونية في تأكيد وحدة مصر وهويتها وإقليمية تاريخها، الأمر الذي يدفعه إلى تبرير بعض سلبيات مصر القديمة، كاستعباد الفراعنة للناس في بناء الأهرامات: يقول:

هي من بناء الظلم إلا أنه يبيض وجه الظلم منه ويشرق (51)

وهو في كل ذلك يستغل الفرعونية في إذكاء الروح القومية المصرية ويستنبط العبر من تاريخها في كثير من المناسبات السياسية والاجتماعية، يقول في قصيدة عن البرلمان:

هل أدنتنا الحادثات بهدنة؟ وهل استجاب، فسالم المقدار؟
سدل الستائر، وهل شهدت رواية يعترضها في الفصول ستار؟
دون الجلاء، ودون يانع ورده خطوات شعب في القتال تسار
وبناء أخلاق عليه من النهر سور من علم الزمان إطار
وحضارة من منطق الوادي لها أصل ومن أدب البلاد بحار (52)

وفي قصيدته عن تمثال نهضة مصر:

وأقبل "رمسيس" جمّ الجلال سئى المواكب مختالها
ومادان إلا بشورى الأمور ولا اختال كبرا ولا استالها
فحيا بأبلج مثل الصباح وجوه البلاد وأرسالها
وأوما إلى ظلمات القرون فشق عن الفن أسدالها (53)

وهو في الوقت ذاته لا يتحرز من الإعراض عن ملامح تلك الحضارات عندما لا تروقه، كقوله مخاطباً توت عنخ آمون:

زمان الفرد يا فرعون ولى ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا (54)

من خلال العرض السابق لأهم مجالات القول عند الشاعر أحمد شوقي نخلص إلى أن الطبيعة الخاصة لهذا الشاعر، قد جعلته بعيداً عن هذه المفاهيم الكبيرة، كالعروبة والقومية، ولعل ذلك يعود إلى جملة من الأسباب، منها النسب التركي الذي يعود إليه أصل الشاعر وهو يعتز به، وارتباطه بالعصر والمكان الذي نشأ فيه، الأمر الذي جعله يقف بين حدّين: إرضاء أميره، وإرضاء جمهوره، فسخر قلمه لخدمة الأمير، تجاه العديد من القضايا، بدءاً من المشاعر الدينية التي كانت تحرك الجمهور آنذاك، وانتهاء بثورة الجمهور تجاه بعض الأحداث العربية كقتل

الطليان للمجاهد الليبي المسلم عمر المختار، وعلى الرغم من أن بعض الدارسين - منهم شوقي ضيف - يرون أن شوقيا كان شاعرا ذاتيا يختفي وراء تلك الغيريات، أجده كان واعيا على ما يريد، فاستحق أن يكون أمير الشعر ومالك ناصيته، فقد أراد لنفسه أن يكون شاعر الماضي والحاضر، يستعيد التراث والتاريخ العربي ويتحدث بلغته وعن لغته، وفي الوقت ذاته يواكب الحاضر بكل أحداثه ومجرياته، وشخصه ومتغيراته، ولعل هذه الشمولية هي أحد دوافع البحث في موضوعات دقيقة كالقومية العربية في شعره.

فإن كان ثمة ما يؤكد اهتمامه بالوعي القومي العربي، فإن ذلك يكون بالتسليم ببعض ما ذهب إليه كثير من الدارسين، من اعتبار حديث شوقي عن الدين الإسلامي ورموزه مسألة قومية ناتجة عن الخلط القديم عند العامة وعند الشعراء أيضا بين القومية والإسلام، على اعتبار أن الإسلام يشكل عاملا يوحد ما بين الدول العربية والإسلامية من جهة وغير العربية من جهة أخرى.

إضافة إلى اعتبار اهتمام شوقي وترديده لصدى الأحداث والثورات في الأقطار العربية خارج مصر، مما يدخل في معاني القومية، فإحياء الشعور "القومي" كان واحداً من إنجازات شوقي السياسية في شعره، إذ تعامل مع الوطن العربي كوحدة سياسية واحدة، في مرحلة حرجة كان فيها العالم العربي يخضع لاحتلالات ثلاثية كبيرة: الإنكليزي والفرنسي والإيطالي⁽⁵⁵⁾

غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هل كان شوقي يعني مثل هذا الارتباط بين تردده لصدى الأحداث العربية ووصفه لبعض المدن والأماكن العربية من جهة وبين مفهوم القومية الذي كان يظهر موازيا للثورات التحريرية في البلاد العربية؟

إن المتأمل في الشوقيات، ولو من ناحية الكم سيقف على حقيقة أن هذه المسألة لم تشكل محورا متميزا في شعره، بقدر ما كانت طريقا للوصول إلى جمهوره، فهو لم يكن يخاطب الجمهور المصري وحده، وإنما كان يشكل صوتا عربيا ناطقا بالمتوهم من الحس الديني السائد، ويتردد صده في مختلف أقطار الوطن العربي، "وبهذا وسع شوقي قاعدة إمارته للشعر ودائرة الولاء له بهذا المضمون الجديد"⁽⁵⁶⁾.

ولعل مما يدل على سلامة هذا التوجه، أن ما قاله شوقي في "المصريات" و"الفرعنيات"، يشكل حيزا كبيرا من اهتمامه من ناحية ومن ناحية أخرى يقف القارئ لها على بروز شخصية أحمد شوقي، وصدق إحساسه تجاه التاريخ المصري، وبخاصة ما يتعلق منه بالحضارة الفرعونية.

ويمكننا أن نعثر على ملامح القومية في شعر شوقي أيضا، إذا اعتبرنا حديثه عن بعض الشخص أو الرموز كشخصية الحسين بن علي، رمزا جامعاً لآمال العرب في الثورة والوحدة، إلى جانب حديثه عن التراث الذي خلده شوقي أيضا، واهتمامه باللغة العربية من منطلق أن عوامل الوحدة - كظاهرة قومية - هي وحدة الدين واللغة والتاريخ والتراث.

خاتمة:

من تلك المنطلقات يمكن القول بأن أحمد شوقي، قد شارك شعراء العربية، في القرن التاسع عشر بتطلعهم نحو الوحدة والقومية العربية، إلا أنه مثل سائر الشعراء في تلك الفترة لم تكن فكرة القومية قد تبلورت لديه، على الرغم من تفاوت الشعراء في فهمهم ووعيهم على هذه المسألة، فلم يكن مفهوم الشخصية العربية القومية الحديثة قد تبلور لديهم، بل لم تكن المعاني القريبة من هذا المفهوم تظهر لدى الشعراء، إلا إذا أحسوا بالخطر الذي يهدد الوطن العربي في فترة الاضطرابات السياسية، وكلما تعاظم إحساسهم بهذا الخطر، كلما اتضح الاتجاه العربي والقومي في أشعارهم.

المصادر والمراجع:

- أبو عواد، محمود، الشعر ومفاهيم الثورة العربية الكبرى، أفكار، ع50/51، 1980.
- أدونيس، أحمد شوقي شاعر البيان الأول، فصول ع، مج 3، 1982
- البطل، علي، أحمد شوقي وأزمة القصيدة، فصول 1 ع3 40
- بطي، الأدب العصري في العراق، القاهرة، المكتبة السلفية، 1923
- جبوري، حامد، ودروزة، الحكم، مع القومية العربية، دن، د.ت
- حسين، محمد محمد، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1986
- حمادي، سعدون وآخرون، دور الأدب في الوعي القومي العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1982
- الحوفي، وطنية شوقي، ط3، القاهرة، دار نهضة مصر، 1960
- الخازن، ولیم، الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية، بيروت، دار المشرق، 1978
- الدقاق، عمر، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، القاهرة، دار المعارف، د.ت
- الرصافي، ديوان الرصافي، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1957

- الريمراوي، عبد الله محمد، القومية: بحث نظري، طرابلس، دار مكتبة الفكر، ط2، 1974
- سالم، حلمي، أحمد شوقي تقليدي أم مجدد <http://elouarari.maktoobblog.com/561449>
- السامرائي، ماجد، التيار القومي في الشعر العراقي الحديث، بغداد، دائرة الشؤون الثقافية العامة، 1983
- شهيد، عرفان، العودة إلى شوقي، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1986
- شهيد، عرفان، شوقي ومصر الفرعونية، فصول مج3 ع2 1983
- شوقي، أحمد، دول العرب وعظماء الإسلام، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1970
- شوقي، أحمد، الشوقيات (1-2)، بيروت، دار العودة، د. ت
- شوقي، أحمد، الشوقيات (1-2)، بيروت، دار العودة، د. ت
- شوقي، أحمد، الشوقيات المجهولة، محمد صبري، بيروت، دار المسيرة، 1979
- شوكت، محمود، وعيد، رجاء، مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي، 1970
- ضيف، شوقي، شوقي شاعر العصر الحديث، مصر، دار المعارف، د. ت
- العقاد، عباس محمود، وحي الأربعين: قصائد ومقطوعات، القاهرة، مطبعة مصر، 1933
- علوان، علي عباس، دراسة من كتاب دور الأدب في الوعي القومي العربي، سعدون حمادي وآخرون، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1982
- قاندييه، محمد طارق، أركان القومية العربية: ثوابت في خضم المتغيرات، بيروت، دار الطليعة، 2001
- الكيالي، عبد الوهاب، الموسوعة السياسية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1974.

1. الكيالي، عبد الوهاب، الموسوعة السياسية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1974، 427
2. السامرائي، ماجد، التيار القومي في الشعر العراقي الحديث، 6
3. جبوري، حامد، مع القومية العربية، د. ن، د. ت، 26
4. الريماني، عبد الله محمد، القومية: بحث نظري، طرابلس، دار مكتبة الفكر، ط2، 1974، 542
5. حمادي، سعدون وآخرون، دور الأدب في الوعي القومي العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1982، 31
6. قائدبيه، محمد طارق، أركان القومية العربية: ثوابت في خضم المتغيرات، بيروت، دار الطليعة، 2001، 9
7. أبو عواد، محمود، الشعر ومفاهيم الثورة العربية الكبرى، أفكار، ع51/50، 1980، 178
8. حمادي، سعدون، دور الأدب في الوعي القومي العربي، 31-37
9. ديوان الرصافي، 155
10. شوقي، أحمد، الشوقيات ج2، بيروت، دار العودة، د. ت، 76
11. بطي، روفائيل، الأدب المصري في العراق، القاهرة، المطبعة السلفية، 1923، 129
12. الدقاق، عمر، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ط2، حلب، مكتبة الشرق، 258
13. المرجع السابق، 259
14. المرجع السابق، 266
15. قائدبيه، محمد طارق، أركان القومية العربية: ثوابت في خضم المتغيرات، 9
16. الخازن، ولیم، الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية، بيروت، دار المشرق، 1978، 78
17. العقاد، عباس محمود، وحي الأربعين: قصائد ومقطوعات، القاهرة، مطبعة مصر، 1933، 146
18. حمادي، سعدون، دور الأدب في الوعي القومي العربي، 262
19. علوان، علي عباس، دراسة من كتاب دور الأدب في الوعي القومي العربي، 254
20. الدقاق، عمر، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، 69
21. شوقي، أحمد، الشوقيات ج1، 226
22. شوقي، أحمد، الشوقيات ج1، 239
23. شوقي، أحمد، الشوقيات ج1، 245

24. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 1 280
25. شوكت، محمود، مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر، 11.
26. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 1 225
27. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 1 105-106
28. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 1 61
29. شوقي، أحمد، الشوقيات المجهولة ج 2 201
30. الدقاق، عمر، الاتجاه القومي الشعر العربي الحديث 35
31. الحوفي، وطنية شوقي، ط3، القاهرة، دار نهضة مصر، 1960
32. شوقي، أحمد، دول العرب وعظماء الإسلام، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 10
33. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 1 92
34. أدونيس، أحمد شوقي شاعر البيان الأول، فصول ع، مج 3/1982، 19
35. الدقاق، عمر، الاتجاه القومي في الشعر العربي، 40
36. ضيف، شوقي، شوقي شاعر العصر الحديث، 32-133
37. شهيد، عرفان، العودة إلى شوقي، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1986، 85
38. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 1، 18
39. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 1 193
40. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 1 162-163
41. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 2 75-76
42. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 1 100
43. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 1 101
44. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 1 76
45. البطل، علي، أحمد شوقي وأزمة القصيدة، فصول ع 1 مج 3 40
46. أحمد شوقي شاعر البيان الأول، أدونيس، فصول ع 1 مج 3 22
47. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، 152 عن ملحق "السياسة" الأدبي 14 أكتوبر 1932.
48. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 1 86
49. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 2 66

50. شوقي ومصر الفرعونية، عرفان شهيد، فصول مج 3 ع 2، 1983، 326
51. شوقي، أحمد، الشوقيات ج 2 ، 66
52. شوقي، أحمد، الشوقيات، ج 2، 164
53. شوقي، أحمد، الشوقيات، ج 2، 184
54. شوقي، أحمد، الشوقيات، ج 1، 274
55. سالم، حلمي / أحمد شوقي تقليدي أم مجدد
<http://elouarari.maktoobblog.com/561449>
56. شهيد، عرفان، العودة إلى شوقي، 85

